الفصل السادس

التربية الخلقية

الدين أصل من أصول الأخلاق :

الدين والأخلاق حقيقتان لاتنفصلان فى الديانة الإسلامية ، كما تتلازمان فى جميع الأديان . وهناك أديان سادت فى شعوب مختلفة وتبعها الناس زماناً بعد زمان وجيلاً بعد جيل . وليس فيها من أصول الدين إلا نزر يسير لايلتى إليه بال ، إلى جانب مافيها من حكمة خلقية وفضائل نفسية . مثال ذلك ديانة الصين وهى الكونفوشيوسية ، وهى مجموعة فضائل بثها حكيم الصين لخير الإنسانية ، ولم تنزل إليه وحياً من الله ، فالأمة التى ينتشر فيها الفساد يذهب ريحها وتمحى من صفحة التاريخ وهى ودينها إن كانت تدين بدين .

ولم يكن القابسى فى حاجة إلى النص على أنه يريد من التعليم تهذيب الخلق . لأن تعليم الدين يحمل فى طياته هذا التهذيب .

فالإسلام يفصل الكلام فى المسائل الأخلاقية الرئيسية التى تناولها القدامى والمحدثون : فيه بيان عن الأصل الأخلاقى للسلوك الإنسانى ، وفيه بيان عن البواعث الخلقية ، كما ينظر فى الحكم الأخلاقى ، وفى الغاية من الفعل الخلقى .

وجماع هذه المبادئ الأربعة نجدها فى القرآن ، فهى مبسوطة وافية ، ولكنها متناثرة فى شتى آياته على الطريقة القرآنية ، وهى ظاهرة لكل من ألم بالكتاب ، ونظر فيه نظر أولى الألباب .

«مافرطنا فى الكتاب من شىء» .

لهذا جعل المسلمون القرآن حجتهم ومرجعهم . ولهذا السبب ألزموا تعليمه ومعرفته . والفقهاء يعتبرون القرآن الأصل الأول من أصول الدين ، ويعتبرون السنة

مكملة للكتاب . قال القابسي : «ومشتهر عند المسلمين أنه جاء عن النبي ﷺ أنه قال : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي» فهو شيء لابد من تعلمه» ٣١ – ب .

والأخلاق من العلوم المعيارية التي تبسط للناس مثلاً عليا ينبغي اتباعها ، وتختلف عما يكون عليه الإنسان في الواقع .

ويرجع الأصل في الاختلاف بين الواقع والواجب إلى ظهور الدين والعرف ، وكلاهما سلطتان قاهرتان خارجتان عن الفرد ، ويخضع لهما الفرد .

وظل الإنسان زمناً طويلاً لايميز بين السلطتين ، سلطة نفسه وسلطة الدين والعرف الخارجتين عنه . والطفل لايميز بينهما لقصور عقله ؛ والعامة من الناس كذلك لايفرقون بين هذه الذاتية وبين السلطة الخارجية ، وذلك لجهلهم ، وبعدهم عن التفكير في أنفسهم .

وأقدم الحضارات التي بينت في وضوح سلطة الدين على الأخلاق هي حضارة قدماء المصريين ، التي آمنت بخلود الروح ، والبعث والحساب والعقاب . وإنك لتجد في أوراق البردى ، والكتابات المسجلة على جدران المعابد كثيراً من قواعد السلوك تعتبر هداية إلى الخير وميزاناً للعمل الصالح . لهذا السبب ارتقى العمران عند قدماء المصريين ، واستمرت حضارتهم أحقاباً طويلة .

ويعتبر المؤلفون الأوربيون أن سقراط هو أول من تكلم في علم الأخلاق كلاماً له قيمته ، بل يعتبرون سقراط واضع علم الأخلاق . وقد صرح بأن الحياة الخلقية تعتمد على أصلين : قوانين الدولة المكتوبة ، والقوانين الإلهية غير المكتوبة . ولكن سقراط قد أحس في الوقت نفسه بتدهور الحياة الخلقية التي كان يحياها معاصروه فحاول أن يكشف عن المبادئ العامة الخلقية المسلم بصحتها ، وانتهى إلى أن الفضيلة وليدة المعرفة أي أنها أمور يمكن تعليمها وتعلمها[1] .

أما أفلاطون فيقابل بين العالم المحسوس والعالم المعقول ، ولايجد الخير إلا في

---

(١) المدخل إلى الفلسفة تأليف كولبة – ترجمة أبو العلا عفيفي – سنة ١٩٤٢ مطبعة لجنة التأليف ص ٩١ .

العالم العلوى المعقول ، حيث نجد المثل تتدرج نحو الإله الخيّر الصانع . وقد أعجبت الأفلاطونية المسيحيين لما فيها من روحانية تتفق مع روح المسيحية . وتعتمد المسيحية على مبادئ ثلاث : فكرة الذنب الموروث ، والدعوة إلى محبة الناس كافة والتسامح ، والاعتقاد فى الثواب والعقاب فى الآخرة .

فالأخلاق إلى عهد المسيحية كانت تسلك طريقين : الأول محاولة الرق بالإنسان نحو الكمال ، والثانى التسليم بأن المعصية موروثة ، وأن الخلاص منها بيد الله .

وكلا الطريقين يستند إلى وجود الله ، ويعتبر أنه تعالى الأصل فى الأخلاق .

ونظر الفلاسفة المحدثون إلى مشاكل العالم والإنسان بالعقل الحر الطليق من جميع الآراء السابقة ، وقد وجدوا أن وجود الله ضرورة من ضرورات هذا العالم . فديكارت والمدرسة الديكارتية تصل بين الأخلاق وبين مابعد الطبيعة ، وتجعل الله ، وهو الكمال المطلق ، أصل الأخلاق .

وهوبز الفيلسوف الإنجليزى ممن يعتبرون الدين وهو سلطة خارجية مصدر التشريع الخلق ، وأن الفعل الخلق يعتبر خيراً لأن الله يريده ، وبذلك يتفق مع الإرادة الإلهية .

فإذا كنا فى العصر الحديث لانزال نفسح المكان للجانب الإلهى الذى يصدر عنه الخَلْق والخُلُق بل كل شىء ، على الرغم مما يسود العالم من حرية رأى ، وجرأة فكر ، وفلسفة مادية ملحدة تحاول تفسير كل شىء ، فليس من الغريب أن نجد فقهاء المسلمين ، ومن بينهم القابسى ، يردون كل شىء إلى الله ، ويجعلون الواحد القهار الرحمن الرحيم ، أصل الأخلاق ، ومصدر الأعمال ، وهو القائل فى كتابه : «والله خلقكم وماتعملون» .

كانت البيئة دينية ، التفكير الدينى يسود فيها كل شأن من شئون الحياة .

القرآن أصل الأخلاق الإسلامية :

الأخلاق نظرية وعملية . ولم ينص الإسلام على أخلاق نظرية منفصلة ، يتبعها

السلوك العملى ، ويستمد قوته من تلك النظريات المقررة . وإنما رسم للناس قواعد العمل الصالح الذى ينبغى أن يسيروا عليه . ومرجع المسلمين فى ذلك هو القرآن أولاً ، ثم السنة المكملة للكتاب .

والقرآن زاخر بهذه القواعد العملية التى تتناول أغلب أحوال الناس فى معاشهم . وفى صلاتهم بغيرهم من الناس ، ومعاملتهم بعضهم بعضاً .

والإسلام دين السلام ، سلام بين المرء ونفسه ، وبين المرء وغيره .

وهو أول دين يحمل الخير للإنسانية كافة . لايقتصر على شعب دون شعب . أو يؤثر أمة على أمة ، فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

فهو شريعة الله لنفع العباد : «إن الدين عند الله الإسلام» .

أما الأديان الأخرى فإنها تنسب لأصحابها من الأنبياء والرسل والحكماء فالمسيحية تستمد اسمها من المسيح ، وكذلك اليهودية والبوذية[٢] .

ويفسر القابسى الإسلام تفسيراً يؤكد به العمل المفروض على الناس من الله ، على طريقة النظار من أهل السنة ، لا على طريقة المتأخرين ، فالإسلام هو : «عمل الجوارح بما افترض عليها ، لأنه يدل على استسلام من قال : أسلمت لله» ٥ – ب . وإذا لم يقترن الإسلام بالإيمان فهو النفاق .

فالإسلام هو الإيمان بالله ، يضاف إليه العمل الصالح .

ويفسر بعض المعتزلة الآية السابقة تفسيراً أعمق ، وأقرب إلى طريقتهم ومذهبهم ، فالإسلام هو : «العدل والتوحيد . وهو الدين عند الله وما عداه فليس عنده فى شىء من الدين»[٣] .

ويقترب من هذا التفسير مايراه «أمير على» إذ يقول : «إن لفظ الإسلام مشتق من السلام ، والتحية ، والأمن ، والإخلاص . ولا يدل هذا اللفظ ، كما هو مشهور ، على الاستسلام المطلق لإرادة الله ، ولكنه على العكس يدل على الجهاد فى سبيل الحق والعدل»[٤]

---

(٢) Ameer Ali, The Spirit of Islam, p. 137.

(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى

(٤) Ameer Ali, The Spirit of Islam, p. 138.

obeikandi.com

هذا التفسير يتلاءم مع مبادئ الأخلاق ، لأنه يجعل الإنسان مسئولاً عن أعماله ، ويؤكد حرية إرادته ، وسنرى كيف يوفق القابسى بين الإرادتين : إرادة الله وإرادة الإنسان فيما بعد .

أما مبادئ الإسلام فهى ثابتة مقررة فى القرآن .

وإذا نظرنا إلى القرآن نظر الباحث الذى يريد تحليل ماجاء فيه ، وجدنا أنه ينقسم إلى أربعة أقسام : قسم للعقائد ومايتصل بها ، وقسم للتشريع ، وثالث للأخلاق ، ورابع للقصص .

وقسم التوحيد يدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد القهار وذلك بأدلة كثيرة منها ماهو عقلى يدعو إلى التفكير والنظر ، ومنها ماهو وجدانى يثير العواطف المختلفة ، ويبعث الرغبة والرهبة ، فيقع المرء تحت تأثير العاطفة ويسهل عليه الانقياد ويتصل بهذا القسم القول فى الوحى والآخرة والجنة والنار ، وأشباه هذه المسائل التى تعتبر جزءاً من العقائد ، وتندرج تحت ماوراء الطبيعة . ويتبع هذا القسم أيضاً العبادات المختلفة ، وأولها الصلاة وهى ذكر الله ، لأن معرفة الله لاتتم بالنظر ، وإنما تستكمل بالعبادة والقرب ودوام الذكر .

وقسم التشريع يبسط القوانين التى ينبغى اتباعها وتطبيقها فى المعاملات المختلفة . وبهذا يحل القرآن كثيراً من المشاكل الدنيوية وهى مشاكل خاصة بعلاقة الإنسان بالإنسان ، وبحياته الإجتماعية والسياسية ، وصلته بأسرته وزوجته وما ينشأ عن ذلك من طلاق وميراث . ويشرع القرآن أيضاً تشريعاً يتصل بتوزيع الثروة ، فيحل مشكلة رأس المال والعمل ، تلك المشكلة العويصة التى برزت فى العصر الحاضر بروزاً واضحاً ، ونشأت عنها نظرية الشيوعية والاشتراكية .

والغرض من القصص هو ضرب الأمثال للناس للعبرة والقدوة كما قال تعالى : «ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل» ومخاطبة الخيال أوقع فى النفس وأشد تأثيراً وبذلك جمع القرآن بين خطاب العقل والعاطفة والخيال ، فملك على الناس مناحى تفكيرهم ، وسلب أفئدتهم ، وكسب قلوبهم ، وأثر فى نفوسهم .

والقسم الخاص بالأخلاق ينظم أفعال المرء مع نفسه ، وأفعال المرء مع غيره أى

obeikandi.com

المجتمع . فهى أخلاق شخصية واجتماعية ، على أن هناك بعض المذاهب تعتبر أن الأخلاق جميعاً اجتماعية ، وحتى الشخصية منها مرجعها إلى المجتمع .

وقد نصح الله الإنسان فى أخلاقه الشخصية أن يقتصد فى المال كما يقتصد فى تناول الطعام ، لصلاح جسده وصلاح شأنه . «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط» وقال : «كلوا واشربوا ولا تسرفوا» هذه فضيلة الوسط بين الإفراط والتفريط ، التى تتلاءم مع طبيعة الحياة الواقعية .

وفى أخلاق الأسرة كثير من الآيات . فالقرآن يحث على الزواج ، وينفر من الزنا وينظم العلاقة بين الزوج وزوجته على أساس خلقى من المودة والرحمة ، كما يأمر الأولاد بالإحسان إلى الوالدين ، والآباء أن ينظروا فى خير أبنائهم .

وجماع الأخلاق الاجتماعية ، أو الأخلاق الفاضلة على وجه العموم يلتقى فى التفسير الذى بسطه القابسى للاستقامة والصلاح بعد حديث الإسلام والإحسان .

أما الاستقامة فهى : «القيام بما أمر الله به» ١١ - ا .

أما الصلاح : «فما تقدم وصفه (أى الإيمان والإسلام والإحسان والاستقامة) من ولى بجميعه وفاء حسناً ، فقد استكمل صفة الصالحين» ١٣ - ب

وقد أمر الله المسلمين بالإيمان به ، وأداء الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصوم ، كما جاء فى حديث الإيمان والإسلام .

ومن أراد أن يحيط بجميع أوامر الله فعليه أن يرجع إلى القرآن .

وخلاصة هذه الأوامر تجتمع فى أول سورة البقرة . ثانية سور القرآن بعد فاتحة الكتاب .

«آلم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون»

اعتقاد بالله والآخرة ، والوحى ، ثم الصلاة والزكاة .

وفى ذلك يقول «محمد على»(٥) : «إن مبادىء الإسلام الأساسية خمسة :

(٥) Moh. Ali. Religion of Islam. Lahor India, 1936, p. 457-458.

ثلاثة نظرية واثنان عمليان . فالنظرية الاعتقاد فى الله والوحى والآخرة ، والعملية الصلاة والزكاة » .

والإنفاق مما ملكت اليد هو الصدقة بأوسع معانيها ، أى العمل الصالح للناس جميعاً . ذلك أن الله لم يهب للإنسان المال وحده ، بل وهب له كذلك عافيته وملكاته .

وقد جمع الله بين الصلاة والزكاة فى غير آية من الكتاب ، مما يدل على الصلاة الوثنية بينهما . فالصلاة تهيئ الإنسان لخدمة الإنسانية .

والاعتقاد فى الله هو النواة التى يدور حولها الإسلام : ومن هذه النواة يتصل الإنسان بالله عن طريق الصلاة . ولاخير فى الصلاة إذا لم تؤد إلى فعل الخير ، كما قال تعالى فى سورة الماعون : «فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

ورد فى القرآن فى مناسبات شتى الحث على الإنفاق ، والصدقة والزكاة ؛ كما يؤكد كثيراً من أفعال الخير كعتق العبيد ، وإطعام المسكين ، والعناية باليتيم . فى سورة البلد : « فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة » .

والصدقة الظاهرة أو الخفية لها جزاؤها . فى سورة البقرة : «إن تبدوا الصدقات فنعمّا هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير» .

ويرى جولد زيهر : «أنه إذا أردنا الإنصاف ، فينبغى أن نؤمن بأن فى مذهب الإسلام قوة صالحة توجه الإنسان نحو الخير ، وأن الحياة المتفقة مع التعاليم الإسلامية حياة أخلاقية لاغبار عليها ؛ ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله ، والوفاء بالعهود ، والمحبة والإخلاص وكف غرائز الأنانية إلى هذه الفضائل التى أخذها الإسلام من الديانات التى اعترف لأصحابها بالرسالة . المسلم الصالح هو ذلك الذى يحيا حياة يحقق فيها مطالب خلقية قاسية »(٦) .

(٦) Goldziher, Le Dogme et la Loi de l'Islam, Paris 1920, p. 15.

فى بعض آيات القرآن دعوة إلى الابتعاد عن الدنيا وإيثار الآخرة : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » وفى سورة النازعات : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى » .

والحقيقة أن دائرة الإسلام لاتشمل الآخرة وحدها ، بل الدنيا أيضاً ، كما قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين » .

والروح الصحيح للإسلام لايتطلب الشدة ، ولايفرض القسوة على النفس . فالاستقامة فى الدين كما يقول القابسى : « هو مداومة المقام فيه ، لاينكب عنه يميناً ولا شمالا ، ولايلتزم منه مالايطيقه » ثم ذكر أحاديث الرسول : « اكلفوا من الأعمال ماتطيقون وفى حديث آخر : إن الدين يسر » .

والرأى عند محمد على : « أن الإسلام يهتم أولاً بهذه الدنيا ، وأن الإنسان إذا عاش معيشة صالحة فى هذه الدنيا ، فإنه يبلغ درجة رفيعة فى الآخرة . ولهذا اشتمل القرآن على كثير من المسائل الدنيوية المنوعة »(١٧) .

من هذا نرى أن القرآن أكبر مرجع للمسلمين ، وأول أصل من أصول الدين ؛ والجانب الخلقى فى القرآن عظيم .

لهذا كانت معرفة الدين عند القابسى لاتتم إلا بتعليم القرآن . ولعل القابسى لم يلزم الأمة ذكوراً وإناثاً بالتعليم ، إلا ليتعلموا القرآن . وهو ينص على ذلك فى صراحة إذ يقول : « إن حكم الولد فى الدين حكم والده مادام طفلاً صغيراً : أفَيَدَعُ ابنه الصغير لايعلمه الدين ، وتعليمه القرآن يؤكد له معرفة الدين » ٢٨ – ا

الضمير والأخلاق :

تبين لنا أن الأصل فى الأخلاق الإسلامية على مذهب أهل السنة يرجع إلى سلطة خارجية قاهرة هى سلطة الدين . وأساس هذا الدين : القرآن الواجب تعليمه

The Religion of Islam, p. 5.

وتعلمه والصلة بين الدين الإسلامى والأخلاق عظيمة تبلغ حد التوحيد بينهما . فالدين وسيلة لتكوين الخلق ، والأخلاق مستمدة من الدين ولا غنى لصاحب الأخلاق عن عقيدة تسمو على مطالب هذه الحياة الدنيا ، إلى هذه العقيدة تتطلع النفوس وتذهب نحو الكمال .

ولعل الذى يجعل الإنسان يتطلع فى أفق هذا العالم إلى شىء بعيد يتلمسه ويرقبه ويستمد منه العون ، ويركن إليه فى ساعات اليأس والمتاعب والنازلات هو امتياز الإنسان بالشعور .

والشعور النفسانى هو المرآة التى تنعكس عليها أعمال المرء ، فيرى فيها تقدير هذه الأعمال ، ويتسنى له أن يحكم عليها بالخير أو الشر .

هذا الشعور النفسانى هو الذى يعبرون عنه فى علم الأخلاق بالضمير ، ذلك الذى يقف من المرء موقف الرقيب ، يحثه على أداء الصالح ، وينهاه عن فعل الضار ؛ ويعاوده بعد أداء الأعمال ، فيؤديه مستنكراً ما أساء ، ويجزيه براحة الضمير أحسن الجزاء .

ولا أخلاق بلاضمير ، سواء اعتبرنا أصل الأخلاق سلطة خارجية دينية أو اجتماعية أو قانونية ، أو اعتبرنا أصل الأخلاق هو هذه السلطة النفسية الصادرة عن النزعات الذاتية والأفكار الباطنة .

فالشعور بالواجب الخلقى هو الذى يدفعنا إلى الأعمال الصالحة .

والضمير هو الحد الفاصل بين الرغبات المطلوبة ، والواجبات المفروضة فى الطبائع الإنسانية يدركها صاحبها بالبديهة . وبعضهم يرجع بالضمير إلى الكسب والخبرة ، وبذلك ينشأ الضمير فينا بالتعليم والتطور الاجتماعى .

ومن الواضح أن القابسى لايقول بفطرة الضمير ، لأنه أحال الأعمال الخلقية إلى سلطة خارجية هى السلطة الدينية .

والضمير على رأيه مكتسب مستمد من الدين .

والقابسى من الموفقين الذين يؤلفون بين شتى المذاهب ، ويلائمون بينها . فهو يثبت أن الله يعلم ما فى السرائر ، ويعرف خبايا النفوس ، وهو الذى يراقب العباد .

وفى الوقت نفسه يثبت أن الإنسان يعرف مايعمل ، وهو الذى يراقب نفسه ؛ ثم يوفق بين مراقبة الله للأعمال وبين مراقبة صاحبها له .

والسبيل إلى ذلك هو إحلال الضمير الدينى محل الضمير الخلق ، بأن يستمد الضمير الخلق وجوده من الدين ، وبذلك يتوحد الضميران .

ويعتمد القابسى فى هذا التأليف على حديث الرسول ، سئل النبى : ما الإحسان ؟ قال : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وقد ضرب القابسى فى تفسير هذا الحديث المثل بالسيد والعبد الذى يجهد نفسه فى حضرة سيده ليرضيه بحسن طاعته ، فإذا خلا العبد من معاينة سيده له ، فإنه قد يقصر . وقياس حال الإنسان مع الله على حال العبد مع سيده قياس مع الفارق العظيم ، لأن دائرة المشاهدة عند السيد محدودة ويخفى عنه الكثير ، وبذلك يتسنى للعبد أن يستغله ، اما العباد فإنما يستغلون أنفسهم إذا أرادوا الاستخفاء من الله . فالله يعلم كل كبيرة وصغيرة ، ولايخفى عليه شىء .

وقد دار الجدل بين المسلمين فى علم الله ، أيعلم الكليات والجزئيات أم الكليات فقط ؟ قال ابن الجوزى : «وقد ذهب أكثر الفلاسفة إلى أن الله تعالى لايعلم شيئاً وإنما يعلم نفسه .. وقد خالفهم ابن سينا فى هذا فقال : بل يعلم نفسه ، ويعلم الأشياء الكلية ولايعلم الجزئيات . وتلقف هذا المذهب منهم المعتزلة»[٨] .

والقابسى يمثل مذهب أهل السنة ، وهو أن الله يعلم الكليات والجزئيات ، لهذا ساق آيات كثيرة من الكتاب لتأكيد هذه المسألة ، نذكر منها : «وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين» .

«واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه» . «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه» . «وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير» .

والأصل أن الضمير هو الذى يطلع على خافية الأنفس ، لأن الإنسان كساكن الدار لايعلم مايجرى فيها على وجه التحقيق إلا صاحبها .

(٨) نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس لابن الجوزى : مطبعة السعادة ١٣٤٠ هجرية ص ٥٠ – ٥١ .

والقابسي يسلم للضمير بهذه القوة وهذه الوظيفة : قوة الحفز على العمل الصالح والنهي عن ارتكاب السيئات ، ووظيفة الاطلاع والرقابة على الأعمال . ولكنه فى الوقت نفسه يؤمن بأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهو الذى يعلم السر والجهر ، فهو رقيب على الرقيب من نفس الإنسان ، بل هو ضمير لضمير الإنسان والإنسانية .

ولا خير فى الضمير إن لم يكن حيًّا يقظاً يؤدى وظيفته على وجهها الصحيح من الرقابة الصادقة والاطلاع الدقيق . فكثيراً مايتبلد الضمير مع الإلف والاعتياد ، فيقع فى سبات لايقوى معه على الشعور بالحسن والقبيح . وإن شعر فإنه لايقوى على شحذ الهمة إلى أداء الفضائل ، أو حفز النخوة إلى الابتعاد عن الرذائل .

لذلك قالوا عن صاحب الضمير الميت : إنه شخص بلا ضمير .

ولا أخلاق مع انعدام الضمير ، والشرط أن يكون الضمير يقظاً مع الأخلاق .

والرأى عند القابسي فى إحياء الضمير يكون بوسيلتين تتفرعان عن أصل واحد . فالأصل هو الإيمان الخالص بالله القوى العليم الغفور ، والسبيل الأول : «أن تعبد الله كأنك تراه ، وأن هذا يلتزمه العبد لله فى أحوال متقلبه ومثواه .. لأنه يجدد للمؤمن إيمانه كلما ذكره» ١٣ - ب .

والسبيل الثانى هو الاعتصام بالله ، لأن الانزلاق الخلقى مرجعه اتباع الشهوات ، ولا عاصم للإنسان من نفسه الأمارة بالسوء إلا الله .. «فإن هم به الشيطان أن يلبس عليه شيئاً ، فاستغاث ربه ، واستعاذ به منه ، فكفاه عدوه ، وأعانه عليه .. وإنما المعصوم من عصمه الله جل وعز» ١٤ - ا .

الإيمان بالله ، والتزام عبادته ، والاعتصام به تعالى ، هى الوسائل المؤدية إلى حياة الضمير ، فتستقيم الأخلاق . وهذه أمور لايعرفها الإنسان ويعمل بها بالبديهة والفطرة ، وإنما تكتسب بالتعلم .

فالمعلم مكلف بتلقين الصبيان الإيمان الصحيح ، والعبادات المختلفة ، والدعاء . وتمام يقظة الضمير ، ومراقبة المرء لنفسه ، ترفعه إلى مرتبة الصالحين ، تلك المرتبة التى لخصها القابسي فقال : «إن كمال ذلك كله فى قول الله عز وجل :

وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيّمة » ١٥ – ١ .

ذلك أن العبادة ليست عبثاً فى الدين ، فالصلاة وهى الركن الركين فى الإسلام عبادة الغرض منها معرفة الله ، وذكره فى كل وقت ، ودوام الذكر هو السبيل إلى يقظة الضمير . لهذا السبب نص الفقهاء على وجوب انصراف المرء فى الصلاة إلى ذكر الله مع عدم الاشتغال بأى أمر من أمور الدنيا . والصلاة المفروضة على المسلمين يؤدونها فى خمسة أوقات متفرقة من كل يوم لدوام الذكر . وقد طُلب إلى المسلمين أن يأمروا أولادهم بتأديتها وهم بنو سبع ليسكنوا إليها ويألفوها ويتطبعوا بها ، حتى إذا تأصلت فيهم هذه العبادة ، انطبعت شخصيتهم بها ، فأصبح المحور الذى تدور حوله الشخصية ومنه تستمد حياتها وكيانها ، هو المحور الدينى .

وقد تزيد هذه الشخصية الدينية قوة مع قوة الشعور بوجود الله ومعرفته والإقرار برقابته ، بشرط أداء العبادة أداء صحيحاً .

وقد تضعف هذه الشخصية إذا كان صاحبها يردد العبادات ترديداً آليًّا ينعدم معه الشعور بوجود الله ، فتنعدم الرقابة الدينية ، ولكنها لا تمحى تماماً .

البواعث الخلقية :

هل الباعث على الأعمال الخلقية هو العقل أو الوجدان .

قبل أن نبحث حقيقة هذه البواعث الخلقية عند القابسى ، لابد أن نرى رأيه فى حرية الإرادة . ذلك أن الباعث إن لم ينطلق عن اختيار فلا سبيل إلى الحكم الأخلاقى ولا موضع للمسئولية أو التكليف .

ومشكلة حرية الإرادة من المشاكل الدقيقة التى جرى البحث فيها فى شتى العصور ، ولم يصل المسلمون حتى الآن إلى حل سليم يتبعونه فيها ، مع ما لهذه المشكلة من آثار اجتماعية بعيدة الشأن فى حياة المسلمين .

والأصل فى هذه المشكلة يرجع إلى التوفيق بين حرية الإنسان والإرادة الإلهية ، ولابد من حل هذه المسألة الدقيقة الشائكة ليستقيم أمر الأخلاق . فقد يستسلم

الناس إلى أمر الله استسلاما أعمى فيركنون إلى التواكل ، ويلجأون إلى التكاسل . ويذهب بعض الناس إلى حد ارتكاب المعاصي قائلين إن كل شيء بأمر الله ، أو هذا ماكتبه الله على العباد .

قال ابن الجوزي : «وقد تشبث القاعدون عن التكسب بتعللات قبيحة ، منها أنهم قالوا : لابد أن يصل إلينا رزقنا ؛ وهذا في غاية القبح . فإن الإنسان لو ترك الطاعة وقال : لا أقدر بطاعتي أن أغير ماقضى الله عليّ ، فإن كنت من أهل الجنة فأنا إلى الجنة ، أو من أهل النار ، فأنا من أهل النار ، قلنا له : هذا يرد الأوامر كلها . ومعلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر»(٩) .

«قالت المجبرة : لاقدرة للآدمي ، بل هو كالجماد مسلوب الاختيار والفعل»(١٠) .

وينتقد أهل السنة الذين يثبتون الحرية والإرادة للإنسان ، بأن في خلق العباد لأفعال أنفسهم سلباً للقدرة الإلهية . وفي ذلك يقول صاحب الإنصاف في تعليقه على تفسير الكشاف : «ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته ، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ماشاءوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم ، محادة ومعاندة لله في ملكه ، ثم يتسترون بعد ذلك بتسمية أنفسهم : أهل العدل والتوحيد . والله أعلم بمن اتقى . والجبر خير من إشراك ؛ إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين»

ولم يذكر القابسي حلاً صريحاً لهذه المشكلة لأن كتابه لم يتعرض لبحث المسائل الكلامية . وأهل السنة على وجه العموم لايخوضون في بحث هذه المسائل الشائكة التي تدعو في نظرهم إلى الانزلاق نحو الكفر ، وإنما يقبلون ما فيها من تعارض بإيمان العقيدة ، لابيقين العقل ، كما كان يفعل السلف .

وقد أراد الأشاعرة أن يحلوا هذه المشكلة فما زادوها إلا تعقيداً ، ورأيهم في الكسب دقيق ، ولذلك يضرب به المثل ؛ فيقال : هذا أدق من كسب الأشعري . والرأي عندهم : «أن الأفعال مخلوقة لله مكتسبة للعبد ، فجمعوا بين الأمرين

---

(٩) نقد العلم والعلماء لابن الجوزي ص ٣٠٥ .

(١٠) المرجع السابق ص ٨٩ .

وقالوا : إن الأفعال واقعة بقدرة الله وكسب العبد . فالله تعالى يخلق الفعل والقدرة عليه بإجراء العادة ولهذا جاز إضافة الفعل إلى العبد وصح التكليف والمدح والذم والوعد . فإنا لو لم نقل بالكسب لزم أحد الأمرين إما الميل إلى الاعتزال ، وإما القول بالجبر ، وكلاهما باطل »[١١] .

أما أهل السنة فقد كفوا أنفسهم مؤونة هذا التحايل على التوفيق ، وقالوا إن الناس مطالبون بالأمر لا بالقدر .

فالقابسى يثبت القدرة الإلهية ، كما يثبت الإرادة الإنسانية ، ويضيف إلى الإنسان الاختيار ، وبذلك يكون مسئولاً عن أعماله ، محاسباً على أفعاله .

والباعث إلى تحريك الإرادة نحو جهة معينة باعث دينى .

فإن قلت : كيف يكون الباعث دينيًّا ، والبواعث تصدر من باطن الإنسا وهى التى تحركه .

قلنا : إن هذه المسألة ينطبق عليها ماذكرنا فى الضمير . فكما توحد الضميران الخلقى والدينى ، كذلك تتوحد البواعث الإنسانية والدينية ؛ ونقصد بالبواعث تلك الأوامر والنواهى التى وردت فى القرآن ، وطلب إلى الناس فعلها . فالزواج باعث إنسانى لاشك فى ذلك ، لأنه يرجع إلى الغريزة الجنسية . وهو باعث دينى أيضاً لأن الله أمر بالزواج . والباعث إلى الامتناع عن الربا يكون باعثاً اجتماعيًّا ودينيًّا ، فهو اجتماعى لما فيه من أضرار تحل بالمجتمع ، وهو دينى لأن الله نهى عنه .

والقابسى يرى أن البواعث يجب أن تكون دينية ، أى أن يتبع المرء ماجاء عن الله والرسول .

فإذا كان الأمر كذلك ، فالتعليم واجب لأنه يبصر المسلمين بأسباب الدوافع المحركة للإرادة على اختيار الأفعال . ولابد أن ينتهى الأمر بالمرء إذا استغرق فى الحياة الدينية ، أن يتصور منازعة صادرة عن الدين ، وأن يوزع أعماله بين الحلال والحرام ويفرق بينهما .

فإذا بدأ الصبى الصغير فى حفظ القرآن ومعرفة تعاليم الدين ، اختلطت هذه

---

(١١) الروضة البهية فيا بين الأشاعرة والماتريدية ص ٢٦ .

التعاليم بشخصيته كلما نما وبلغ مبلغ الرجولة ، فتتحد البواعث الدينية فى نفسه مع الزمن مع البواعث الشخصية .

فرجع البواعث إلى الدين ، وإلى القرآن .

والقرآن كما ذكرنا يخاطب العقل والوجدان ، لأن الطبيعة الإنسانية فيها التفكير والتدبير ، وفيها المحبة والكراهية ؛ ويعمل الإنسان بدافع من الرأى والنظر كما يتحرك بقوة الخوف والغضب .

ومذاهب العقليين فى الأخلاق – والفلسفة القديمة أغلبها على هذا المذهب – تهمل جانب الوجدان . وأصحاب هذه المذاهب يغلّبون الحكمة والعقل على أهواء للنفس ، ويرون فى العقل أساس اختيار الفضائل .

وسقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيون ، وديكارت وليبنتز وكانط ، وغيرهم كثيرون على هذا المذهب العقلى .

وعند المسيحيين أن الباعث الأساسى إلى أفعال الخير هو الشعور بالمحبة . ويميل أغلب المحدثين – على الأخص علماء النفس – إلى اعتبار الوجدان أساس الإرادة ، ويعتبرون العاطفة أساس الاختيار الإرادى ، وليس العقل .

وقد مالت طائفة من المسلمين وهم المعتزلة إلى ناحية العقليين ، ومالت طائفة أخرى إلى جانب الوجدانيين وهم المتصوفة . قال الجنيد : «المحبة ميل القلوب . معناه أن يميل قلبه إلى الله ، وإلى ما لله فى غير تكلف»[١٢] .

وبعض المفسرين يفسرون الآية الآتية من سورة الإنسان : «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً» ، أى محبة الله .

ولكن أهل السنة يأخذون بالجانبين جميعاً ، بالبواعث العقلية والوجدانية .

مثل ذلك ما جاء عن تعليم اليتيم الذى ليس له مال ، فإن المعلم قد يعلمه احتساباً لله عز وجل ، فهذا باعث وجدانى يرجع إلى العاطفة الدينية .

وجاء فى تعليم الأنثى أنها : «تعلم مايرجى لها صلاحه ، ويؤمن عليها من فتنته» فالباعث إلى تعليمها عقلى ، لأن القابسى ينظر فى مصلحتها ، ولو أنه يقصد

(١٢) التعرف لمذهب أهل التصوف الكلاباذى ١٩٣٣ – الخانجى مصر ، ص ٧٩ .

بالمصلحة ، المصلحة الدينية بطبيعة الحال .

ولانريد استقصاء جميع الأمثلة التعليمية الواردة فى كتاب القابسى ، فكلها على هذا النمط من الجمع فى البواعث بين العقل والوجدان .

الغاية الخلقية :

يختلف المفكرون اختلافاً كبيراً فى تحديد الغاية من الأفعال الخلقية . وعندنا أن مرجع الخلاف هو إلى تباين الطبائع البشرية فى المزاج والتفكير والإدراك والسلوك والشخصية .

جعل القورينائيون فى الفلسفة القديمة اللذة الحسية غاية الأعمال الخلقية . وأنصار هذا المذهب قليلون ، لأن الأخذ باللذات الحسية يؤدى إلى آلام كثيرة ، كما يتعارض مع تقدم الإنسانية ، إلى جانب وجود لذات أشرف من اللذات الحسية .

ومذهب السعادة أدنى إلى القبول ؛ وسقراط وأفلاطون وأرسطو على هذا المذهب . وفى السعادة راحة النفس والضمير ، وسرور الفرد وغبطة المجتمع . وإذا كانت السعادة أشرف من اللذة الحسية لأنها فضيلة الحكمة واختيار الوسط العدل بين الإفراط والتفريط ، فى الإمكان التوفيق بين الارتياح الذى يشعر به الفرد وبين السعادة العامة . ويصعب التوفيق بين اللذة الشخصية وبين اللذة العامة التى يحس بها الناس جميعاً ، لأن تحقيق اللذة عند الغير يكون على حساب الفرد ، والاشتراك فى إسعاد الآخرين لايتنافى مع سعادة المجتمع .

وهناك مذاهب أخرى تنشد غايات خارجية موضوعية ، منها الكمال ؛ فالذى يفعل الخير إنما يريد أن يصل إلى الكمال .

والذين يقولون بالتطور يرون أن تاريخ الإنسانية صراع دائم نحو التقدم والرقى . وأن وجود هذه الغاية الأخلاقية ، هو الذى يجتذب الإنسان مع الخير إلى دوام التقدم .

ويعترضون على المذهبين السابقين بأن الصفات الخلقية هى نفسها الكمال أو التطور ، وهاتان الغايتان خاضعتان لغاية أخرى .

قالوا إن الطبيعة هى الغاية الخلقية . فالحياة الموافقة للطبيعة هى الحياة الخيّرة التى تجلب اللذة والسعادة ، وروسو فى المذاهب الحديثة عنوان على هذه الفلسفة الطبيعية .

وهناك مذهب المنفعة الذى راج فى الفلسفة الإنجليزية رواجاً كبيراً ، والمنفعة العامة إذا كانت رائد الأعمال الخلقية ، والغاية منها ، حققت الخير الأكبر عدد من الناس .

وقد تجنب بعض الفلاسفة الاعتراضات على المذاهب السابقة فقالوا إن الخير واجب لذاته ، يفعله المرء لأنه واجب . فالواجب الخلقى هو الغاية ، لا الكمال أو التطور أو الطبيعة أو المنفعة . وكانط من أنصار مذهب الواجب فى الأخلاق .

ومذهب أهل السنة لايرى رأى هؤلاء جميعاً ، لأنه خرج بالغايات الخلقية من ميدان الدنيا إلى ميدان الآخرة .

وبذلك يلتقى الناس جميعاً فى غاية واحدة ، تتسع لهم جميعاً ، ولا يقع عليها خلاف ، هى التمتع بنعم الجنة فى الآخرة .

وقد وصف الله الجنة فى أكثر من آية من القرآن ، ليكون الناس على بصر بما يلقون من جزاء .

« وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية . لاتسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة » سورة الغاشية .

إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا لايسمعون فيها لغواً ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا » سورة النبأ .

« إن المتقين فى ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون إنا كذلك نجزى المحسنين » سورة المرسلات .

من هذا الوصف للجنة يتبين لنا أن الله وعد المتقين فى الدار الآخرة متاعاً من اللذة الحسية والسعادة ، فجمع بينهما . وإذا كانت الجنة غاية خارجية ، ففيها تحقيق للغايات النفسية .

وفى الوقت نفسه وعد الله المفسدين الذين يؤثرون أنفسهم بنار الجحيم ، وفى

ذلك يقول : «إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون عن المجرمين . ماسلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين» سورة المدثر.

والمنفعة من الغايات الأخلاقية الدنيوية ، التى تخضع لغاية أسمى هى الفوز بالدار الآخرة «وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون» سورة البقرة .

والمسلم مطالب بالمعيشة وفق الطبيعة ، والتمتع بالطعام والشراب والزواج . كل ما فى الأمر أن تكون هذه المعيشة الطبيعية ملائمة لمطالب الفرد ومطالب المجتمع . لاإسراف فيها ، كما تحقق صلاحه وصلاح المجتمع وخيره .

وهناك مصالح رفعها الله إلى مرتبة الواجبات ، وفرضها على الناس ، كالصلاة والزكاة فالذى يؤدى الزكاة إنما يؤديها لأنها واجب دينى ، وهى فى الوقت نفسه واجب خلقى . وبذلك تتوحد الواجبات الدينية والخلقية ، كما رأينا فى التوحيد بين الضمير الدينى والخلقى .

والواجب الخلقى فى الإسلام يختلف عن الواجب عند كانط ، لأن الواجبات الإسلامية ليست غايات فى أنفسها ، تطلب لذاتها ، ولكن من ورائها الجنة تنتظر من أحسن أداءها أما الواجب الكانطى فهو غاية لذاته .

وبذلك تجتمع الغايات المختلفة التى نظر إليها المفكرون تحت راية واحدة ، وغاية أسمى وأعلى هى الغاية الدينية . ولا يمنع السعى إلى الآخرة من التعلق بأهداب الدنيا ، إذ لاتعارض بينهما .

والقابسى ينشد من الأخلاق الغاية الدينية ، والسعادة فى الدار الآخرة . وهو فى الوقت نفسه لايرى بأساً فى طلب غايات دنيوية ، لأن الدين أقرها .

من الغايات الدنيوية التى يحققها الوالد من تعليم ابنه ، أن يكون به سعيداً ، أو كما يقول القابسى : «فمن رغب إلى ربه أن يجعل له من ذريته قرة عين ، لم يبخل على ولده بما ينفق عليه فى تعليمه القرآن» ٢٨ - ا .

أما الغاية الأصلية فهى رضا الله : «فعل الوالد إذا أنفق ماله عليه فى تعليمه القرآن ، أن يكون من السابقين بالخيرات بإذن الله» ٢٥ - ا

والذى يعلم ولده فيحسن تعليمه ، ويؤدبه فيحسن تأديبه ، فقد عمل فى ولده عملاً حسناً ، يرجى له من تضعيف الأجر فيه . كما قال الله : «من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة» ٢٥ - ب .

وصفة الصالحين عند القابسى هى حسن العبادة ، وأداء الفرائض واجتناب المحارم : كما قال تعالى : «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيراً» ١٣ - ١ .

ويتعلق بالغاية مذهب آخر ، هو القول بأن الخير هل يلحق الفرد أو الجماعة .

والإسلام على مذهب الجمعيين ، لأنه ينشد خير المجتمع ، بل الإنسانية كافة ، وقد رأينا فى سورة المدثر كيف دخل المجرم النار لأنه لا يطعم المسكين

ويؤثر القابسى خير الجماعة على خير الفرد ، ويحض باستمرار على المصلحة العامة .

مثال ذلك ماجاء عن المعلم الذى يعلم الصبى الفقير احتساباً : «فإذا آثره على نفسه استأهل - إن شاء الله - حظًّا وافراً من أجور المؤثرين على أنفسهم» .

شخصية الصبيان الخلقية :

تصل أعمال المرء بعد زمن إلى درجة من الثبات والآلية ، فتكون هذه الأعمال عنواناً عليه ، وتنسب إلى شخصه ، ويعبر عنها بالشخصية . وجزء من هذه الشخصية يكون خلقيًّا ، كالأمانة والصدق إذا عرفت عن شخص معين .

ومرجع الصفات الخلقية فى تكوين الشخصية إلى المجتمع ، لأن الإنسان على أى الحالات كائن اجتماعى قبل كل شىء .

والمدرسة جزء من المجتمع ، بل هى عنصر هام ، وعامل من أكبر العوامل فى التأثير الاجتماعى ، خصوصاً فى المراحل الأولى من تربية الصبيان . وأول تأثير يتلقاه الطفل فى حياته هو تأثير الأشخاص الذين يحيطونه ، وهم والده وأهله فى المنزل ؛ فإذا شب قليلاً واشتد ساعده ، فإنه يختلط بغيره من الناس فى ذلك المحيط الضيق الذى يعيش فيه قريباً من المنزل . ومنذ سن الخامسة أو السادسة أو السابعة ، ينتقل

الطفل إلى بيئة جديدة هى الكتّاب ، حيث يبقى فيه إلى أن يتم حفظ القرآن بأكمله ، أو يحفظ جزءاً منه ، إلى جانب تعلمه القراءة والكتابة ، وبعض النحو والعربية ، وشيئاً من الحساب ، وما إلى ذلك من الأمور التى كانوا يعتبرونها وسائل للإحاطة بالدين .

فى هذه البيئة الجديدة يتصل الطفل بغيره من الصبيان ممن هم فى مثل سنه ، أو ممن يكبرونه قليلا ، ويتصل أيضاً بالمعلم الذى يقوم بتعليم الصبيان وتأديبهم ، وأكبر الظن أن الصبى فى مثل هذه السن الصغيرة لايزن الأمور ، ولا يقدر مرامى الأعمال ، وإنما يتصرف ويسلك تحت وحى من المحاكاة الفطرية فى النفس . ومحاكاة الحركات والأعمال أسبق من محاكاة المعانى والآراء .

والشخصية الجديدة التى يتأثر بها ويحاكيها لأنها أعظم الشخصيات بالنسبة للصبى وبالنسبة لجميع الصبيان ، هى شخصية المعلم فهم لايجدون أمامهم إلا هو ، يتعهدهم منذ الصباح الباكر سحابة النهار ، وهو الذى يعلمهم أو يلقنهم هذه المبادئ المختلفة ، وهو الذى يرشدهم إذا أخطأوا سواء السبيل . وهو الذى يؤمهم فى الصلاة إذا حضر وقتها ؛ وله عليهم سيطرة شديدة تسمح له أن يضربهم فى بعض الأحيان ؛ فهو منهم بمنزلة القائد . والصبيان فى هذه السن الصغيرة اللينة يكونون كالعجينة التى يسهل تشكيلها . لهذا نجد الصبيان يحاكون المعلم فى كل شىء .

ومن هنا تنطبع شخصية الصبيان بطابع المعلم إلى جانب انطباعها بشخصية زملائهم فى الكتاب ، وبتأثير القرآن الذى يتعلمونه .

على أن تصرف المعلم لايكون إلا فى حدود هذه المعانى القرآنية وقد يشذ بعض المعلمين عن تعاليم القرآن الصحيحة ، ولكنهم قلة لايعمل لها حساب .

فالمرجع فى سلوك الصبى يكون لتأثير المعلم ، وتأثير الصبيان الذين يختلط بهم ، وتأثير آبائه فى المنزل ، والمرجع لهؤلاء جميعاً هو القرآن فى تلك البيئة الإسلامية . ومن صفات القرآن أنه كلام الله ، لامبدل لكلماته . وهو صريح فى كثير من المسائل الأساسية فى سلوك الإنسان صراحة لاتحتمل التأويل .

أما الخلاف بين الفرق الإسلامية ، فهو خلاف فى تأويل بعض النظريات

العميقة فى الإسلام . ولا يستطيع الصبيان لقصر عقولهم أن يفهموا مدى هذا الخلاف ، أو ينزلوا إلى معتركه . على أن أهل السنة يأخذون الأمور على ظاهرها ، ولا يتعمقون فى التأويل إلى الدرجة التى تبعدهم عن الروح البسيط الموجود فى القرآن . لذلك كان أهل السنة قريبين من قلوب العامة وأفهامهم ، وقريبين من قلوب الصبيان وعقولهم أيضاً .

فالسيرة الخلقية التى ينتهجها الصبى ، والشخصية التى يتركب منها فى الفترة التى يقضيها فى الكتّاب ، ترجع فى نهاية الأمر إلى شىء واحد هو القرآن ، بالتفسير الذى يقدمه المعلم على مذهب أهل السنة .

وفى القرآن إلى جانب النص على أخلاق عملية معينة ، أسس خلقية تعد عماداً للأخلاق الحسنة أو الفضيلة . والأخلاق فى خلاصتها مجموعة من الفضائل ترمى إلى الخير . والفضيلة والرذيلة ، أو الخير والشر ، طرفان متناقضان لايجتمعان ، لأن الفضيلة هى الكمال ، والرذيلة هى النقص . والإنسان يحس نقصه ، وهو حين يرتكب الرذائل المختلفة إنما يثبت على نفسه هذا النقص . ولكن الإنسان يحاول التخلص من النقص ، ويتطلع نحو الكمال . هذا التطلع هو الرقى بنفسه . والحياة كلها ترمى إلى الرقى والكمال ، وقد يصل الإنسان إلى شىء من هذا ، ولكنه لايبلغ النهاية ولايصل إلى الذروة ، لأن الكمال لله وحده ، ولذة الإنسان فى هذا السعى ، وفى هذا الرقى لتحقيق المثل العليا .

ولايتيسر الوصول إلى الفضيلة إلا بأمرين : التعليم والقدوة .

وسيرة الرسول هى قدوة المسلمين كما قال تعالى : «وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا» وقال : «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» . لذلك كان تعليم سيرة الرسول ذات فائدة خلقية عظيمة ، لأنه يضرب الأمثال للصبيان فى الأخلاق الفاضلة . وكذلك تاريخ العرب وهو المعروف بأيام العرب وأخبارها ، والذى نص عليه القابسى وغير القابسى من المربين مع المواد التى يتعلمها الصبيان ، إنما الغرض منه سوق العبر الفاضلة ، والعظات الخلقية التى يقتدى بها الصبيان .

وإذا كانت هذه السير بعيدة عن أنظار الصبيان ، لايتم التأثر بها إلا بمقدار ، فالمعلم ينبغى أن يكون هو نفسه مثلاً حيًّا للسيرة الفاضلة ، ليكون عنواناً على الفضيلة . لهذا أوجب القابسى أن تكون صفات المعلم حميدة ليتأثر بها الصبيان ، وتتم بها الفائدة فى التربية الخلقية .

وهذا جانب من الطريقة السقراطية فى الأخلاق ، لأنه هو نفسه كان مثلاً حيًّا للفضيلة .

والأمر الثانى المفيد فى كسب الفضائل هو معرفتها أو العلم بها . فالإنسان يجب أن يخضع لما يعقل ، أو لما له سبب ، فهو لايذهب مذهباً خلقيًّا إلا بعد الإيمان بأنه مشروع . والإنسان يكون واثقاً من نفسه إذا سار على هدى من المعقولات ، لابدافع من النزوات لذلك نجد المجرم يبرز جريمته ، ويقنع نفسه بأن مايعمله مشروع .

لذلك كانت الأخلاق تحمل فى طياتها جراثيم التعليم ، سواء أكان تعليمها أو العلم بها صادراً من الشخص إلى نفسه ، أو من شخص آخر إليه ؛ والبيئة التى تريد أن تنشر الفضيلة ، لابد لها من تعليمها وبيان العلة فيها . وقد أشار القابسى إلى هذا التعليم الواجب للفضيلة قبل الأمر بها ، وقبل إنزال العقاب على مخالفيها . قبل أن يلجأ المعلم إلى الضرب ، ينبغى أن ينبه الصبى مرة بعد مرة إلى خطئه . وقال فى موضوع آخر : «ويأخذ عليهم ألا يؤذى بعضهم بعضاً» وحين تكلم عن التبايع الذى يحصل بين الصبيان أوجب على المعلم : «أن يشدد عليهم فى الأخذ ألا يعودوا إلى التبايع فيما بينهم ، ويعرفهم وجه الربا فيما صنعوا على ذلك ، يخبره بعينه ويقبحه عنده . . »

فنحن نرى القابسى يطلب العلم بالفضائل أولاً ، أو المعرفة بها ، على أن يكون هذا العلم مستمدًّا من القرآن والسنة بطبيعة الحال . والقرآن غنى بالفضائل وأسبابها ، زاخر بالتوجيهات الخلقية ، والدوافع إلى الخير .

وتلك هى الطريقة السقراطية فى جانبها الثانى ، وهو العلم بالفضيلة ، بل إن سقراط وحد بين العلم والفضيلة ، فجعل العلم شرطاً للفضيلة لاتتحقق إلا به ،

وجعل الذى يعمل الفضيلة عالماً بها .

وسبيل الوصول إلى الفضيلة عند سقراط هو الاستقراء والنظر إلى النفس ، وفى ذلك يقول الحكمة المأثورة : «اعرف نفسك بنفسك» . وفى القرآن إشارة إلى ذلك حيث قال تعالى : «وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون» كما حث الله العباد على وجوب النظر والاستدلال .

ولكن الصبى الصغير لايستطيع أن ينعطف على نفسه ليستخرج منها هذه المعانى الخلقية بنفسه . لهذا اكتفى القابسى بما يفعله المعلم من توجيه نظره وتفهيمه مايجب عليه هذا التفهيم مستمد من القرآن والسنة . وقد أشار القابسى إلى ذلك عندما أراد معالجة الولد العاق لوالديه فقال : «فاقرأ على ولده القرآن ، وفهمه ماعليه لوالده فى لين ورفق لعله يتذكر أو يخشى» .

بذلك يكون الدين نفسه هو المحور الذى يدور عليه التعليم ، والذى تدور حوله التربية الخلقية . والنظريات الحديثة فى التعليم والتربية تجعل الطفل نفسه هو المحور الذى يدور عليه التعليم . هذا الانقلاب فى وجهة النظر التعليمية لم يتم إلا فى عصر متأخر ، أما فى العصر الذى نتحدث عنه فكان الدين مستغرقاً حياة الناس العقلية والخلقية والاجتماعية . ولهذا السبب كان أول شىء يعرفه الطفل ويتعلمه هو القرآن ، فيه كل مايحتاج إليه الإنسان فى حياته ، كما قال تعالى : «مافرطنا فى الكتاب من شىء» .

الفضائل والرذائل :

الفضائل حلية الإنسان ، وهى حسنة إذا عمل بها صاحبها ؛ أما العلم بها دون عمل فلا فرق بين إنسان يحملها ، أو كتاب يحويها .

وقيل إن الإنسان مجموعة من العادات . وأغلب أعمال الإنسان عادات وهى توفر الوقت والمجهود ، وتؤدى إلى الاتقان والسهولة ، وتجعل صاحبها يتفرغ لأعمال جديدة يفكر فيها فإذا كان الأمر كذلك فمن الخير للإنسان المبادرة بتكوين العادات الفاضلة حتى تتأصل منه ، وتنزل منزلة الطبع ، ولأن الإقلاع عن العادات المرذولة

إذا تمكنت يكون شاقًا عسيراً .

لهذا كان من الواجب على القائمين بتربية النشء ، أن يزرعوا فى أنفسهم الصفات الخلقية الحميدة منذ الصغر ، ليشبوا عليها ، ويألفوها مع الزمن .

وقد فطن القابسى لهذه النتائج المترتبة على تكوين العادة فقال بصدد تعليم الصلاة : « وقد أمر المسلمون أن يعلموا أولادهم الصلاة والوضوء لها ، ويدربوهم عليها ، ويؤدبوهم بها ، ليسكنوا إليها ويألفوها ، فتخف عليهم إذا انتهوا إلى وجوبها عليهم » ٢٧ - ١ .

وهناك فضائل أوحى القابسى بتوجيه الصبيان إليها ، كما أن هناك رذائل نص عليها ، ونبه المعلم إلى وجوب الحذر منها ، وإبعادها عن طريق الصبيان . والنص على رذائل خاصة ، وذنوب بعينها ، يدل على ما كان يجرى فى ذلك العصر ، وينبئ عن أسرار تلك البيئة الاجتماعية .

من هذه الصفات الخلقية التى ينبغى أن يتحلى بها الصبيان الطاعة . وليست الطاعة واجباً على الصبيان نحو المعلم فقط ، بل هى واجب المسلمين كافة لأوامر الله والرسول ، كما جاء فى القرآن : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . وفى القرآن آيات كثيرة تحث على الطاعة بل تأمر بها ، فقد أمر الله المرأة أن تطيع زوجها ، والابن أن يطيع أباه . وبذلك نجد الإسلام يضع الناس فى درجات من السيطرة والخضوع ، والأمر والانقياد . وفى قمة هذه الدرجات الله تعالى الذى أمر العباد بعبادته وتسبيحه وحمده ، كما أمرهم بأنواع كثيرة من السلوك بينهم وبين أنفسهم ، وبينهم وبين غيرهم . ويلى طاعة الله طاعة الرسول وأولى الأمر ، كل ذلك بنص فى الدين . والوالد هو الولى الشرعى لأبنائه ، لذلك وجبت طاعة الأبناء للآباء بأمر الدين . والمعلم يحل محل الوالد ، ومنزلته هى نفس منزلته ، وفى ذلك يقول القابسى : « فإنما هو لهم عوض من آبائهم » وبذلك تجب طاعة الصبيان للمعلم .

هذه الطاعة إنما أوجبها الشرع على الناس لحكمة . ذلك أن خير المجتمع ومصلحته إنما تكون فى الألفة بين الأفراد ، والتعاون بينهم . وتتحقق مصلحة

الصبيان بما يمليه عليهم أولياء أمورهم ، الذين قد سمت عقولهم ، واتسعت مداركهم وكثرت خبرتهم ، وعرفوا الشرع والدين والحياة حق المعرفة . فلا يتم تعليم الدين ، بل تعليم أى أمر من الأمور ، إلا بالتلقين الصادر من الكبار إلى الصغار ؛ ولايتحقق هذا التلقين إلا بالطاعة .

المعلم وهو يلقن الصبى إنما يقدم إليه خلاصة ما بلغت إليه الحضارة فى أجيال متلاحقة . ولو تركت الطفل يحصل بمفرده حقائق الحياة وأسرار الوجود ، لوجب أن يطول عمره آلافاً من السنين ليبلغ ما وصلت إليه المدينة الحاضرة .

وعلى الصبى حين يكبر أن يضيف إلى خبرة الأجيال الماضية خبرة جديدة .

ومن الصفات الخلقية التى ينبغى أن يتعودها النظام . والنظام والطاعة صنوان ، فإذا كان خير المجتمع فى الطاعة ، فإنها تستوجب النظام ، حيث كانت الفوضى مفسدة للمجتمع ، ومضيعة للتعاون الضرورى للحياة الإنسانية ؛ ولا دولة مع الفوضى .

هذا النظام مطلوب من الصبيان فى حضورهم إلى الكتّاب ، وفى انصرافهم عنه ، وفى استماعهم للدرس ، وفى أعمالهم المدرسية .

والعبادات فى الإسلام تحمل فى طياتها إلى جانب الطاعة والنظام كثيراً من الصفات الخلقية الحميدة .

فالصلاة عماد الدين . وتأديتها فى أوقاتها يعلم النظام والدقة فى حفظ المواعيد ، حتى إذا شب الطفل على إقامة الصلاة مع المحافظة عليها تعود الإقبال على العمل فى الوقت المناسب ، والمبادرة إلى انتهاز الفرصة قبل ضياعها . وابتعد عن التثاقل ، وامتنع عن التكاسل .

وفى الصوم من النتائج النفسية والخلقية مثل ما للصلاة . لأن التعود على الإفطار فى ساعة معينة هو النظام الدقيق ، الذى يطبع المسلمين بطابع الإحساس بالوقت ، وحسن الاستفادة منه .

ولا تصح الصلاة بغير وضوء ، لأنه شرط للصلاة ، والوضوء غسل وطهارة ونظافة والنظافة من الفضائل الشخصية العظيمة الأثر فى الصحة ، كما تنتقل فائدتها

إلى النفس فتطهرها . ذلك أن الشعور بالنظافة الظاهرة ، يهيئ الإنسان إلى النظر في المعانى بالأسلوب نفسه ، فيعف اللسان ويطهر الفكر .

فالطفل مطالب بطهارة الجسم ، كما هو مطالب بطهارة القلب والنفس . لذلك ينبغى أن يكون صادقاً ، عفيفاً ، أميناً ، حافظاً للعهد .

والمعلم مكلف تعليم الصبيان الوضوء ، والصلاة مع تأديتها فى أوقاتها ؛ وهو فى هذا التعليم الدينى لهذه العبادة ، إنما يلقنهم فى الوقت نفسه الطاعة والنظام والنظافة والعفة والطهارة .

ومن الدواعى التى تبعث الصبى على الانصراف عن المعلم وطلب العلم اللعب . ومن طبيعة الأطفال اللعب ، ففى هذه السن الصغيرة تشتد حيويتهم ، وتكثر حركتهم ، ويقبلون على اللعب بدافع من الفطرة . وقد نص القابسى على أن اللعب من الذنوب التى تستوجب العقاب . فاللعب عنده من الرذائل .

والمعلم معذور إذا حاول أن يزجر الصبيان عن اللعب ، لأنه يريد الهدوء وينشد النظام المؤدى إلى حسن سير الدرس والتحصيل ، ولم تكن الدراسات النفسية للأطفال قد بلغت فى ذلك الزمان مبلغ ما وصلت إليه الآن .

لذلك كانوا يعتبرون الطفل رجلاً صغيراً يعامل معاملة الرجال . أما التربية الحديثة فإنها تنظر إلى حياة الطفل نظرة تختلف عن الكبار . لهذا سايرت التربية الحديثة ميول الطفل وغرائزه ، فاستغلت اللعب فى مصلحة التعليم . وبذلك وفقت بين طبيعة الطفل وحاجة المجتمع فقامت المدارس الخاصة بالأطفال على اللعب فى الظاهر ، مع أن الغاية المقصودة هى تعليم الأطفال . وعندئذ تتحقق المصلحتان ، مصلحة الطفل فى الترويح عن نفسه ، واستغراق الحيوية الفائضة فى كيانه المتدفق نشاطاً فى هذه السن الصغيرة ، كما تتحقق مصلحة المجتمع من تثقيف الصغار على الوجه المطلوب القائد إلى التقدم والرقى .

هذا الجهل بطبيعة الطفل ، واعتبار ميله إلى اللعب ، ونزوعه إلى الحركة ، من الرذائل التى ينبغى أن تحارب ، أدت إلى كراهية الصبيان للكتّاب . ومن شأن الإنسان إذا أحب شيئاً أن يقبل عليه ، وإذا كره شيئاً أن ينصرف عنه ، ويبتعد

منه . فليس غريباً أن نرى الصبيان فى ذلك العصر يتحولون عن المكان الذى يكرهونه ، ولايجدون فيه المجال الواسع للحركة واللعب ، وهو الكتّاب ، لهذا السبب كان الصبيان يهربون من الكتّاب بل يديمون الهرب منه . كما ينبئنا القابسى فى صراحة : «فإن اكتسب الصبى جرماً من أذى ، ولعب ، وهروب من الكتّاب ، وإدمان البطالة . . » مما يفصح عن عادة تأصلت فى نفوس بعض الصبيان . وكان المعلمون فى ذلك الزمان يعانون مشقة هذه الرذيلة ، ويحاولون علاجها ، ولكنهم لم يفطنوا إلى أصل العلة وهو منع الطفل عن اللعب» .

إلى جانب هذه الرذائل وهى اللعب ، والهروب من الكتّاب ، وإدمان البطالة نجد رذائل أخرى تشيع فى الواقع فى كل جو مدرسى أو فى كل بيئة اجتماعية يشترك فيها عدد من الصبيان أو الشباب . وهم الذين لم تتأصل فى نفوسهم بعد مشاعر احترام الغير ، وضبط النفس . وكبح الأهواء الجامحة والنزوات الطائشة . فالصلة بين الصبيان تؤدى إلى التنافس فيما بينهم ، ومحاولة ظهور بعضهم على بعض ، وسيطرة أحدهم على غيره .

والسيطرة والظهور من أقوى الطبائع المحركة للهِممَ ، الباعثة على العمل ، ولاتهذب طريقة السيطرة ، ولا يسمو الإنسان بالميل إلى الظهور ، إلا بعد تعلم طويل ، وثقافة عريضة ؛ بل العامة ، وأهل الشعوب المتأخرة ، يظل فيهم الميل إلى الظهور والسيطرة على الصورة الأولية من البطش والقوة والاعتداء البدنى ، والغلبة الجسمية لا العقلية . فليس غريباً أن تبدو على الأطفال هذه النزعات الفطرية التى لم تهذبها الحضارة وتحولها الثقافة نحو الخير والسمو . بل ينبغى أن تظهر لأنها عنوان الحيوية ودليل النشاط والقوة .

ومهمة المعلم أن ينظم مثل هذه النزعات ، وأن يمهد لها الطريق السوى المؤدى إلى التقدم والرقى . لذلك كانت مهمة المعلم شاقة ، تحتاج إلى كثير من الحكمة والبصر النافذ فى أخلاق الناس عموماً . وطبائع الأطفال بوجه خاص . وقد سجل القابسى فيما ذكر من طبائع الصبيان إيذاء بعضهم بعضاً . وشكاية بعضهم أذى بعض ، بل استفاضة الأذى فى بعض الأحيان . وعندنا أن هذه الرذيلة التى عدّها

القابسى كذلك هى من فضائل الحياة ، بل لاينبغى اعتبارها رذيلة أو فضيلة ، لأنها طبيعة الطفولة ومظهر الفتوة ، ودليل التوثب . وكان الواجب أن نعالج هذه الطبيعة نحو الخير والنفع بتوجيه قوى الطفل فى أمور تستغرق نشاطه . ويبدو فيها الميل إلى التفوق العلمى والغلبة العقلية . وهذه هى الطريقة السليمة ، وقد نصح بها القابسى وأجازها فى بعض الحالات . كما نذكر عند الكلام على طرق التعليم .

وأشار القابسى أيضاً إلى نقيصة خلقية كثيراً ما كانت تقع بين الصبيان وهى التبايع فيما بينهم ، كأن يبيع بعضهم من بعض : «كسرة بزبيب ، أو زبيباً برمان ، أو تفاحاً بقثاء» وهذه الظاهرة ملحوظة فى تلاميذ المدارس من كل جيل وفى كل شعب ، فهى طبيعة الناس إذا اجتمعوا وقد نظر القابسى إلى هذه المسألة نظراً دينيًّا فحرمها لما فيها من رباً ، وطلب إلى المعلم أن ينهاهم عن هذا التبايع . والحقيقة أنه إلى جانب الربا المذكور فى كتب الفقه ، فإن التبايع بين الصبيان صرفٌ لهم عن طلب العلم ، وشغل لأذهانهم عن التحصيل ، فضلاً عن إشاعة الفوضى وسوء النظام ، وظهور الحقد والغضب والحسد والبغضاء ، مما يؤدى إلى إيذاء بعضهم بعضاً رغبةً فى الانتقام ، وشفاء للنفس مما أصابها من الغل والحسد .

ومن الرذائل الفاشية فى كل مجتمع ، وخاصة بين الشباب ماذكره القابسى فى هذه العبارة : «وإنه لينبغى للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده ، يناهز الاحتلام ، أو يكون له جرأة» وهو وتعبير وجيز العبارة ، لطيف الإشارة ، يدل على عفة فى نفس المؤلف ، تحمله على الابتعاد عن الإطالة فى مواطن الفحشاء والمنكر . وهذا الإيجاز لايحل هذه المشكلة الخطيرة ؛ فهى المشكلة الجنسية التى اجتهد الناس أجيالاً فى إخفائها ووضع الرقابة الاجتماعية والخلقية والدينية فى سبيلها ، إلى أن تبين لعالم النفس «فرويد» أنها أساس السلوك عند الإنسان فى كل ناحية من نواحى الحياة ، بل إنها أصل الشذوذ والأمراض العصبية والنفسية .

وترجع هذه المشكلة إلى أن الرغبة الجنسية إذا ظهرت فى أكمل صورها عند الاحتلام فلابد لهذه القوة الغريزية من الانسياب . ولكن الدين يقف عقبة فى سبيل

تحقيقها ، وكذلك المجتمع فإذا استمع الشاب لوازع الدين ، وأوامر التقاليد ، تراجعت الغريزة فى نفسه ، وانحبست هذه القوة ، مما يؤدى إلى انفجارها بعد زمن . والغالب أن دافع الغريزة يكون أقوى من رادع الدين ووازع الضمير ، فيحقق نداء الطبيعة ، ويلبى صوت الغريزة ويحمله تيار الفطرة الجارف إلى هذه الألوان من الفساد الجنسى .

والحل الطبيعى الذى يتفق مع أوامر الدين ونواهيه ، واصطلاح العرف والتقاليد الحسنة هو الزواج ؛ وهو الحل الوحيد . وفى ذلك يقول القرآن : «وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » .

ولكن زواج طفل حديث البلوغ لايتيسر لأسباب صحية واقتصادية واجتماعية .

وعندئذ تظل المشكلة قائمة ، وكل علاج يوصف لها ليس إلا من قبيل الملطفات الوقتية ، وما يدرينا مايجرى فى الخفاء بين هؤلاء الصبيان ، أو بين الصبى ونفسه . ولم يكن للقابسى من حيلة إلا أنه نصح المعلم باتخاذ الحذر والاحتراس ، ليكون يقظاً لما عساه يحدث بينهم .

ولو أن القابسى أطال الكلام فى هذا الموضوع لحدثنا عن أثر الفضيلة التى اكتسبها الصبى بالتلقين والعادة فى صراع الرذيلة .

فالطفل الذى يحفظ القرآن إنما يحفظ آيات الخير ، لأنه كتاب لاريب فيه هدى للمتقين .

والطفل الذى يؤدى الصلاة ، إنما يذكر الله ويعبده ، ويتقرب إليه ، ويقف بين يديه ويستعين به على صراع الشر .

obeikandi.com